اسلمني يا مصر ...!

للأستاذ محمود محمد شاكر

ظللتُ سنوات معتزلاً أو كالمعتزل ، وما اعتزلتُ إلا لأن الحياة أرادتني على ذلك فأطعتها ، وليتني ما فعلتُ ! ثم جاءت أيام فهزَّتني حتى كادت تقتلعُ جذور الحياة من أغمض أعماقها في نفسي وفي قلبي وفي سائر بنياني وحواسّي ، فانتبهت كالذاهل المغمور وأنا لا أدري أحيٌّ أنا أم ميت ، وإن كان لم يشعر بما أشعر به إلا رجلٌ أو رجلان أدركا ما أنا فيه من محنة وشقاء . ثم انجلت الغمة وارتفعت النشاوة ، وبدأتُ أرى الدنيا كما ينبغي لمثلي أن يراها ، فأقبلتُ عليها أتفحصها كأني أقرأ تاريخاً جديداً لم يكن لي به علم ولا خَبَر . ومن يومئذ آثرت أن أغفل شأن هذه الشعرات البيض التي تلتمع على فوديَّ نذيراً وبشيراً ، وقلت لنفسي : كذب والله عليٌّ بن جبلة الخزاعي ، فإني لأجد هذه الشعرات البيض أخفُّ على قلبي محملاً وأشهى إلى نفسي من كل ما استمتعت به في سدر شبابي ، وكيف أشجى بشيء قد جعله الله بديلا من جنون الصِّبا وعُرام الشباب . وأنا أسوق هنا أبيات عليّ بن جبلة ، وإن كان لا حاجة للمقال بذكرها ، لأني أعتدُّها من أجود الشعر وأرصنه وأحسنه تمثيلا لمقدم الشيب ، وأدقه تصويراً لإحساس الفزع الذي تتجرَّعه النفوس الشاعرة في يوم الكريهة — يوم الشيب . قال يذكر الشيب وقد بلغ الأربعين :

ألقى عصـــاه ، وأرخى من عمامته

وقال : ضَيفٌ . فقلت : الشيبُ ؟ قال : أجلْ !

فقلتُ : أخطأت دار الحيّ ! قال : ولِمْ ؟

مضتْ لك الأربعون التِّمُّ ! ثم نزلْ

فما شَجِيتُ بشيء ما شَجِيتُ به ،

كأنما اعتمَّ منـــه مَفْرِق بجَبَـــلْ

ولست أنكر أن عُلوَّ السن بالمرء أمر ينبغي أن يلقى له باله ويتعهده حتى لا يؤخذ على سهوة وفي غفلة ، وأن الشيبَ هو النذير العريان — ولكن ما بالشيب من عار ، فنحن إنما خلقنا تغشى على صوت الضمير ، ونغمة مبحوحة لا تسمع بين صراخ المطامع ، وعواء الشهوات ، في ذلك العالم الهائج الشعور !

والآن . أيها الشرق . ماذا تريد ؟

فأما إن كنت تبغي الخلاص من براثن الوحش الغربي . فهناك طريق واحد لا تتشعب فيه المسالك . فهو أقرب طريق — اعرف نفسك ، وراجع قواك ، واستعد للصراع ، وابدأ في الكفاح ، ولا تستمع إلى صوت خادع يوسوس لك بالثقة في ضمير الغرب المدخول .

وأما إذا كنت تبغي الراحة مع ذلك الجيل المكدود المهدود من الساسة المترفين الناعمين ، فأمامك طرق كثيرة ذات شعب ومسالك ، وذات منعرجات ودروب . هناك المفاوضة ، والمحادثة ، وجس النبض ، واستطلاع الآراء . وهناك الدبلوماسية الناعمة الرقيقة ، والكلمات الرفيقة الظريفة ، وهناك الانتظار الذي لا ينتهي ، والاستجداء الذي لا يغني . وهناك المؤتمرات الحافلة والموائد المستديرة ، وهناك الكتب البيض ، والكتب الزرق ، والكتب الخضر ، وما لا ينتهي من الطرق والمنعرجات والدروب !

والحمد لله — أيها الشرق — لقد تكشف لك القناع عن آخر ضمير « الضمير الأمريكاني » الذي كانت تتعلق به الأنظار ، أنظار الغافلين والخادعين !!!

والحمد لله — أيها الشرق — إن شمسك الجديدة في شروق ، وشمس هذا الغرب الفاجر في غروب . وإنك تملك من الرصيد الروحي ، ومن ميراثك القديم ، ما لا يملكه هذا الغرب المتطاحن الذي يأكل بعضه بعضاً كالوحوش لأنه يحكّم قانون الغابة فيما يشجر بينه من شقاق لا ينتهي ، وهل ينتهي الشقاق في الغابة بين الوحوش .

إنها الفرصة السانحة — أيها الشرق — للخلاص . فانفض عنك رجال الماضي الضعفاء المنهوكين . وابرز بنفسك للميدان ، فقضايا الشعوب في هذه الأيام لا بد أن تعالجها الشعوب .

وما قضية فلسطين إلا قضية كل شعب عربي ، بل كل شعب شرقي . إنها الصراع بين الشرق الناهض ، والغرب المتوحش . وبين شريعة الله للانسان وشريعة الناب للوحوش .

سير فطب

لنحيا ونموت ، فلتكن حياتنا كلها كما بدأتْ جهاداً متصلا جريئاً فى سبيل الغاية التى نفخ الله فينا من أجلها الروح . وقبيح بامرىء علمته الأيام ووعظته الأسى منذ كان أبوه الشيخ آدم إلى يوم الناس هذا — أن يجزع أشفَّ جزَعٍ من منهل لم ينج سابق من وُروده ، ولن يَنجوَ من وروده لاحق .

وليت شعرى ماذا يضيرنى من شيبة فى شعراتٍ ، إذا كان قلبى لا يزال غضًّا جديداً كأنه ابن الأمس القريب ؟ ولو قد كان ذلك ضائرى لقد هانت الحياة هوَاناً يجعلها أسخف وأخفّ وأضأل من أن أحفل بها أقل حفل . وكذلك عقدت عزمى على أن أضربَ فى مسالك الحياة حيث لا يعوقنى وقار غثٌّ ، ولا حنبلية متزمّتة ، وحيث أخبرُ الحياة على وجهها الذى هى عليه اليوم ، لأعرف ما الذى ستكون عليه غداً . فأسرعت إلى حلقات الشباب ممن تجاوزوا العشرين وأشرفوا على الثلاثين ، لأرى كيف يفكرون ، وأنظر كيف يعملون ، وأعرف ماذا يدبرون ، وأعلم أين يستقبلون فرأيت ونظرت وعرفت وعلمت ، فأشفقتُ وأملتُ ، وخفتُ ورجوتُ ، ولكنى على ثقة من أن رحمة الله أوسع من أن تضيق بأمة ضلّت فى بيداء هذه الحياة ، وقد خرجتْ تضرب فى جوانبها مطموسة البصر إلا ماشاء الله .

كان من أهم ما شغلنى أن أسمع ماذا يقولون عما يشغل الناس جميعاً فى هذه الأيام ، وأن أناقشهم فيما يقولون حتى أعرف خبء نفوسهم وضمائرهم ، وأن أنقل ما استطعت شيئاً مما يعتلج فى هذه القلوب الشابة التى تريد الحياة الحرة الكريمة — أى تريد الفطرة التى فطر الله الناس عليها . وينبغى لكل صاحب قلم أن يحرص أشد الحرص على بيان ما يرى وما يُراقب ، فإن الجيل الماضى الذى صارت إلى يديه مقاليد الحكم فى مصر غافل كل الغفلة عن الآمال والآلام التى تساور القلوب المصرية الشابة ، وجاهل كل الجهل بالمولود الجديد الذى ولد فى أرض مصر وشبّ ونشأ واستوى وكاد يبلغ مبالغ الرجال . يقول قائل الشباب :

« لقد خرجت مصر كلها ، عالمها وجاهلها وغنيها وفقيرها ، تنادى يوماً ما باسم « الجلاء » وباسم « وحدة وادى النيل من منبعه إلى مصبه » وباسم البلد الواحد الذى هو «مصر والسودان». والشعوب أو الجماهير إن شئت ، لا تعرف تفاصيل التاريخ ولا يهمها أن تعرف ، بل هى تحس وتدرك وتتمنى وتسعى وتفعل كل شىء بالإلهام الذى تستمده الفطرة المستقيمة ، وهذه الفطرة المستقيمة إذا نظرت إلى شىء استوعبت لُبّه وطرحت نفايته ولقد نظر الشعب المصرى بفطرته المستقيمة فرأى دولة طاغية تحتل سماء بلاده وأرضها وبحارها ، بل تحتل أرزاقها المقسومة لأهلها من طعام وشراب ، وتشاركها فى نسمات الهواء بل تضيق عليها أيضا ، وتحرمها النفحة بعد النفحة من هذه النسمات . وإذن فهى تمنع عنها ما هو مباح للوحوش فى مساوبها ، والبهائم فى مراعيها ، والطير فى مسابحها . وإذن فلا بد من أن تظفر بما يظفر به أدنأ الخلائق وأهونها على الناس وعلى الله ربّها وربهم . وإذن فالشعب لن يعرف إلا كلمة واحدة هى : « الجلاء » ، ولا ينادى إلا بشىء واحد هو : « اخرج من بلادى أيها الغاصب »، ولا يعرف من التاريخ ولا من السياسة ولا من البراعة والحذق فى الدهاء إلا أن هذا غاصب واقف بالمرصاد يقتاله ويقتال أسباب حياته ، ويرى به فى الرغام ليعيشَ هو فى رغد وفى بحبوحة .

« قام الشعب فأسمع من كانت له أذنان ، فإذا فئة من محترفى السياسة ، ومن كل محتال عليم اللسان ، ومن كل وجيه زيّنه ماله وغناه ، ومن كل ذى صيت رفعته الأقدار بالحق أو بالباطل — قد هبُّوا جميعاً مع الشعب يقولون بمثل الذى يقول ، فظن الشعب أنهم قد صدقوا بعد ماضٍ كذَبَ على التاريخ وعليهم ، فرضى عنهم وأعانهم ، ولكن لم يلبث إلا قليلا حتى رأى الوادى يموج عليه بالحيّات والأفاعى والعقارب ، وكل لدّاغ ونفّاث وغدّار ، فانتبه فزعاً يطلبُ النجاة مما تورط فيه من ثقة بأقوام لم ينالوا يوماً ما ثقته ، ولاحتملهم أمانته ، ولارضى عن أعمالهم ، ولا سلّم إليهم مقاليده إلا مرغماً أو مغرَّراً أو مخدوعاً . ثم بقى الشعب يترقب نهاية هذه المفاوضات العجيبة التى نالت فيها مصر كل شىء إلا الجلاء ، وحازت كل خير إلا الاستقلال ، ورأت كل عجيبة إلا عجيبة ارتحال الجيوش البريطانية ذات الزىّ العسكرى أو الزىّ المدنى » .

ويقول قائل الشباب : « إننى لاأعرف تاريخ القضية المصرية على الوجه المعقّد الذى يدلّسُ به الساسة علينا ، ويدخلونَ به المخافة والذعر فى قلوبنا . لا أعرفُ من تاريخ هذه القضية إلا أن بلادى كانت توشك أن تكون قُبيل سنة ١٨٨٢ إحدى الدول العظمى فى العالم ، ثم إذا بأوربة كلها تتألّبُ على بلاكها ، وقتلها ، والولوغ فى دمها بتحريض دولة واحدة قد امتلأ قلبها جشعاً وحقداً . فلما ظفرت بما أرادت ، ذادتْ كل دولة عن

طريقها ، ورمت مصر غدراً وخيانة فاحتلتها فى سنة ١٨٨٢ ، وحشدتها الدول ، وخافت مغبة احتلالها لأرض مصر ، فتألبت عليها وطالبتها بالخروج منها ، فوعدت أن تجلو عن أرض مصر جلاء ناجزاً بعد أن تستقرّ الأمور ويتوطّد سلطان العرش المزعزع ! وقامت مصر تطالب بالجلاء فوعدت أيضاً بالجلاء ، وظلت بعد ذلك تَعِد وتَعِد وتَعِد وهى لا تمل وعداً ولا تحققه ، إلى أن كانت سنة ١٩٠٦ ، فإذا هى تعلن الجلاء إعلاناً تاماً صريحاً بيّناً واضحاً ناجزاً سريعاً ، وتبدأ تجلو ، ولكن من غرفة إلى غرفة ، ومن سرير إلى سرير ، ولكنها لا تخرج من باب الدار إلى لَقَم الطريق .

« ثم إننا نرى هذه الفئة التى اختالت فى ثياب « الزعامة » ومجدتها الصحافة وسمتها باسم «الزعامة» قد دخلت فى المفاوضات بينها وبين البريطانيين باسم مصر ، ومصر منها برآء ، فإذا بريطانيا تزعم للشعب أنها جَلَت عن مصر ، فأخلت القلعة ، وأخلت فندق سميراميس ! وكانت فيه القيادة العليا البريطانية للجيش البريطانى فى مصر ، وأخلت كذا ، وستجلو عن كذا ، ولكنها تأبى فى المفاوضات إلا أن تبقى فى مصر لتشارك مصر فى الدفاع عن أرض مصر العزيزة — على بريطانيا بطبيعة الحال !

« أفتظن هذه الفئة أن الله قد سلب الشعب المصرى فطرته السليمة ، حتى تخدعه كل هذه الترهات الباطلة التى يرسلها كهنة السياسة من كهوف المفاوضات على واديه المحرّم ؟ لئن ظنوا فقد خابت ظنونهم وباءوا بأخيب الرأى وأبعده عن مواقع الصواب إن الذى بيننا وبين بريطانيا قد بان وتكشّف لكل ذى بصر . نعم لقد مضى على مصر دهر وهى مخدوعة بالمفاوضة ، ومخدوعة بقدرة السياسة على نيل الحقوق المهضومة ، ولكن لم يبق فى مصر بعد اليوم شابٌّ فى قلبه ذرّة من إيمان بالحرية ، وفى عقله ذرة من حسن التقدير وصدق التفكير ، إلا وهو يعلم أصدق العِلْم أن المفاوضة معناها كذب القوىّ على الضعيف ، وذلة الضعيف بين يدى القوىّ . ونحن ننظر صابرين إلى هذا العبث الدائر بين رجال قد أحدُّوا أنيابهم ، وأعدُّوا مخالبهم ، ورجال قد عرَّضوا مقاتل أمتهم لهذا الضارى المفترس ليقضم منها حيث شاء كما شاء، ثم يقول للفريسة : لقد أعددت لك الأطباء والممرضين ليضمدوا جراحك ويحقنوا دماك ، ويدفعوا عنك عادية الرَّدَى ! وكذلك تكون شفقة الأسود الرحيمة !

« إن القضية المصرية أبسط قضيّة على وجه الأرض : غاصب قد أقرّت الدول جميعاً منذ سنة ١٨٨٢ أنه غاصب معتد ، ومغصوبٌ لا يزال يصرخ منذ ذلك التاريخ ، ويقول لأهل الدنيا : أنقذونى . فما معنى الدخول فى المفاوضات بيننا وبين بريطانيا ؟ إن العالم كله مطالب بإخراج بريطانيا من مصر ، ونحن لا نحب أن نفاوض بريطانيا ولا ينبغى لنا أن نفعل ، بل الذى ينبغى هو أن نفاوض الدول كلها إلا بريطانيا فى شأن إخراج هذا الغاصب وإجلائه عن برّنا وجوّنا وبحارنا ، وفى صدّه عن عُدوانه على أعراضنا وعلى طعامنا وعلى أرزاقنا وعلى أخلاقنا وآدابنا وثقافتنا ...

« إن بريطانيا دولة قوية ما فى ذلك شك ، ولكننا أقوى منها لأننا أصحاب حق . فليعلم هؤلاء المفاوضون أن مصر لن تقبل الدنيّة فى مستقبلها ومستقبل أجيالها ، وليعلم هؤلاء المفاوضون أنهم لا يملكون التصرف فى رقاب أهل مصر الحاضرين ، ولا فى رقاب الأجيال الآتية ، وأنهم وإن كانوا مصريين كراما ، إلا أن مصر خالدة على وجه الدهر ، وهى أكرم منهم على أبنائها ورجالها الآتين . ونحن الشباب الناشىء نعرف أننا لن ننال لأنفسنا ولبلادنا حقها وحريتها إلا بالحزم والعزم وترك التهاون ، والإقلاع عن هذه الخبائث التى يسمونها المفاوضات ، ونسميها نحن المساومات . ونحن الشباب الناشىء نعرف أن الحياة لا معنى لها إذا خلتْ من الشرف والكرامة ، وأن الشرف والكرامة عندئذ هى الموت . فلنمت كراماً صادقين ، فذلك خير من أن نعيش أذلاّء مستعبدين . ولتعلم هذه الفئة أنها تسير بمفاوضاتها فى وادٍ ، وأن الشباب يسير فى وادٍ غيره ، فليحذروا مغبة ما يفعلون ، وخير لبريطانيا أن تفهم هذا ولا تتجاهله ، فربما جاء يوم لا ينفعها فيه هذا التجاهل ، وكان خليقاً أن ينفعها الفهم وحسن الإدراك » .

هذا حديث الشباب أيها الشيوخ ، فاحذروا غداً ، فإن القوة التى تتجمع فى الصدور قد أوشكت تنقض السُّدود التى رفعتها بريطانيا وشيدتها وجعلتكم عليها قُوّاماً وحُرّاساً . أيها الشيوخ شاركوا الشباب قبل أن يأتى يوم لا يُغنى عنكم عقلكم ولا استبصاركم ولا تلبُّسكم بأثواب السياسة ومُسُوح الحكمة وعمائم الوقار . وذلك يوم قد دنا أوانه .

محمود محمد شاكر